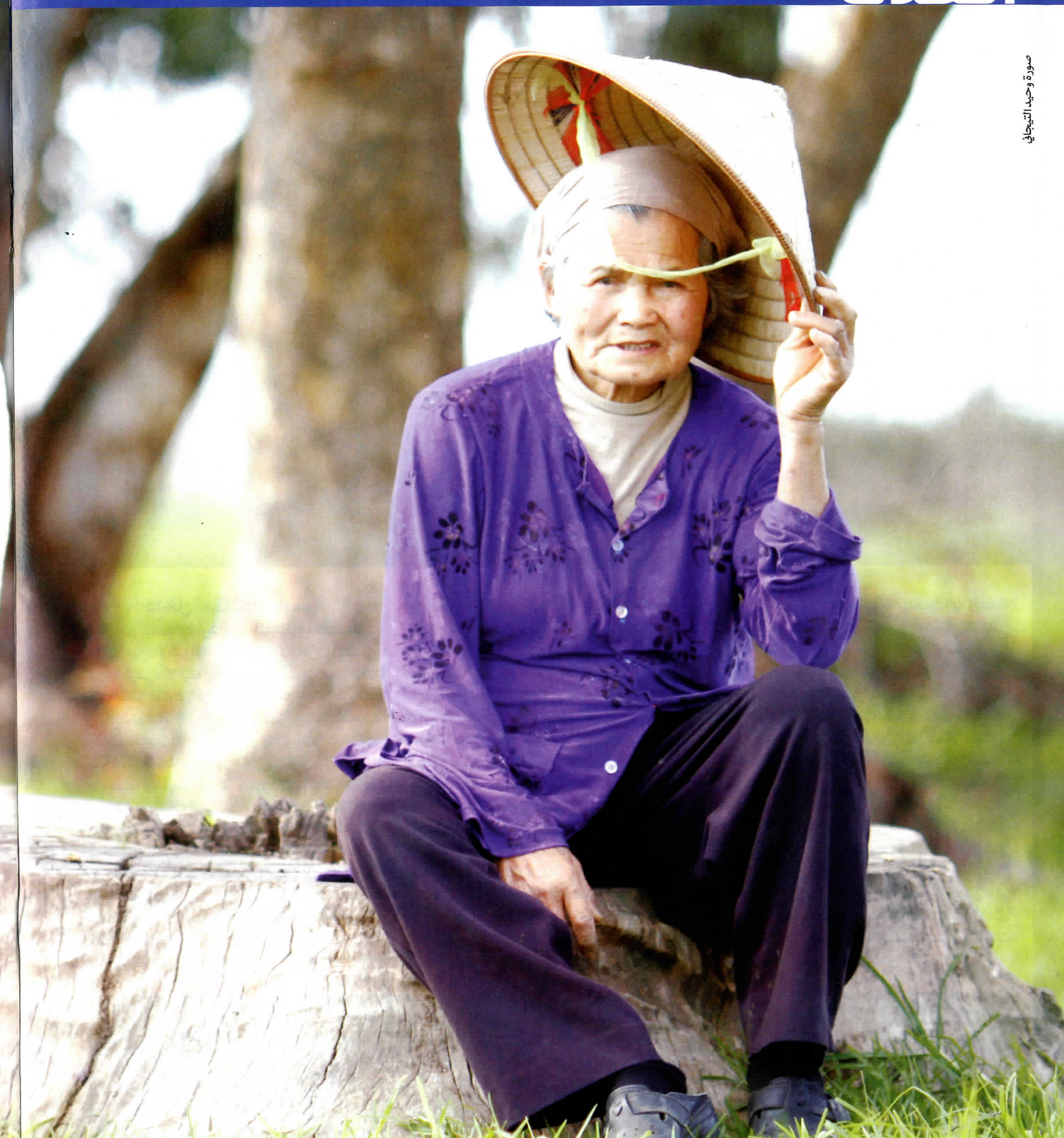

صورة وحيد التيجاني

أعد الملف
عدنان أحيزون

بعيونهم الضيقة، بابتسامة سمحة لا تفارق شفاههم وبعشقهم للأرض والأرز، استبدلوا «النهر الأحمر» بـ«واد سبو»، قريبا من القنيطرة بعيدا عن جحيم «لاندوشين» يعيش فيتناميو المغرب.. «هسبريس» تروي جزءا مستقطعا من التاريخ الذي قسا على جنود خاضوا حروبا لا يتذكرون فيها وجه الجلاد أو الضحية.. حكايات من لاندوشين قصة رفاق «هوشي منه» الذين يعيشون بيننا.

بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وانتصر الحلفاء على دول المحور انتصارا كان للمغاربة وباقي جنود المستعمرات دور حاسم في تحقيقه، سوف يرحل هؤلاء الجنود إلى جحيم الهند الصينية «لاندوشين»، كما رُسخ اسمها في ذاكرة المغاربة، هناك وخلال ست سنوات سيُهزم المغاربة إلى جانب الفرنسيين. الهزيمة كانت الحدث البارز الذي أخفى التحاق عدد من المغاربة بالعدو الأحمر، خلال مراحل سنوات الحرب، ومن ثم الاستقرار بالفيتنام لمدة دامت 17 سنة بالتمام والكمال، تعايش خلالها المغاربة مع الفيتناميين قبل العودة إلى الوطن الأم، هذه المرة العودة لم تكن طبيعية، عاد الجنود المحاربون بزوجات فيتناميات وبأولاد بسحنة آسيوية، لا يتحدثون الدارجة المغربية، وبحكايات من «لاندوشين». »

حكايات من لاندوشين

خاص

جنود مغاربة ضمن الجيش الفرنسي في فيتنام.

» رحل المغاربة إلى الهند الصينية وسمعتهم العسكرية تسبقهم، كيف لا وهم من كسر شوكة الألمان في «مونتي كاسينو» بإيطاليا ممهدين الطريق لنصر الحلفاء بأوروبا، هذا الاعتراف بمساهمة المغاربة في تحرير أوروبا تجلى في تكريم الجنرال ديغول شخصيا للمغاربة في احتفالات 14 يوليوز 1945. انتبهت القيادة العامة الفرنسية إلى شراسة مقاتلي مستعمرات شمال إفريقيا، وعمدت إلى تنظيمهم بشكل أكثر فعالية داخل «الفيلق الأجنبي» بالجيش الفرنسي من أجل الحملة التالية للجيش الفرنسي التي تعد الأكبر لهذا الجيش منذ الحرب العالمية الثانية: حملة الهند الصينية (أو لاندوشين كما يعرفها كل المغاربة).

الحرب ليست نزهة

حين رحل الجنود المغاربة، خصوصا الذين لم يسبق لهم خوض أي حرب من قبل، لم تكن لديهم أدنى فكرة عن الجحيم الذي ينتظرهم كما يحكي أحمد العياشي، أحد قدماء المحاربين الذي التقيناه بالمركز الفرنسي لخدمات قدماء المحاربين بالدار البيضاء: «فتح باب التطوع لأن فرنسا كانت بحاجة إلى جنود أكثر نظرا لخسائرها بالحرب العالمية الثانية، تطوعو لأنه لم يكن هناك من بديل عن الفلاحة التي كانت رهينة بالمطر، حتى إننا لم نكن نعرف أين سنقاتل». فرنسا لم ترغم أحدا على التطوع، يقول العياشي، على الأقل في قريته، لكن كانت لها وسائل أخرى للدفع بالفلاحين إلى التطوع: الإغراءات، وإن لم تنفع هذه الأخيرة، فمضايقات رجال السلطة تفي بالغرض.

المغاربة أدوا واجبهم في معركة «ديان بيان فو» حيث لم يغادروا مواقعهم وكانوا ينطقون بالشهادة كلما اقترب من أحدهم الموت.

رحل الجنود المغاربة إلى «لاندوشين» سنة 1948 وهم يمثلون النسبة الأكبر في الفيلق الأجنبي الفرنسي، بعد أن رفض عدد كبير من الجزائريين الالتحاق بالجيش الفرنسي لتنامي الشعور الوطني في تلك الفترة، كانت فرنسا آنذاك تريد إعادة سيطرتها على الهند الصينية التي استغنت عن أجزاء منها مكرهة بعد الحرب العالمية الثانية. شملت الحملة إلى الهند الصينية 17 طابورا مغربيا إضافة إلى الجيش الفرنسي النظامي. كانت المهمة الأساسية للمحاربين المغاربة، الذين كانوا يعتبرون من نخبة القوات الفرنسية، تأمين المنطقة الشمالية من الهند الصينية والتي كانت معقل «الفييت منه»، التنظيم المسلح للحزب الشيوعي بقيادة الزعيم «هو شي منه». وعلى الرغم من أن القيادة الفرنسية كانت تعول بشكل كبير على تمرس المغاربة على الطبيعة الصعبة، سيعاني المجندون المغاربة كثيرا في تضاريس لم يعرفوها من قبل، فما كان من القيادة إلا أن قررت إنهاء مهام هذه القوات وإشراكها ضمن الجيش الفرنسي بعد هزيمتها في معركتي «دونغ هي» و«كاو بانغ».. حيث لم تنفع المقاومة الشرسة التي أبداها المغاربة الذين قبعوا محاصرين أياما طويلة من قبل مقاتلي الحزب الشيوعي. فرنسا لم تدرك أن الهزيمة كانت ستكون أفدح لولا تضحية المغاربة، حيث اعتبر الكاتب «لودان ميشيل»، في كتابه «الأفارقة في حرب الهند الصينية»، أن «المغاربة أدوا واجبهم كجنود قبل معركة ديان بيان فو، حيث لم يغادروا مواقعهم وكانوا ينطقون بالشهادة كلما اقترب من أحدهم الموت. لقد جنب المغاربة فرنسا خسائر كبيرة في أول الحملة لكن القيادة العسكرية لم تستوعب الدرس»، وبالفعل استمرت فرنسا في مغامرتها بالهند الصينية إلى حين الهزيمة الكبرى بمعركة «ديان بيان فو» التي شارك فيها أيضا المغاربة المتبقون، وأعلنت هذه المعركة عن رحيل القوات الفرنسية ومنح الاستقلال لجمهورية الفيتنام الديمقراطية. خلال هذه الحملة خسرت فرنسا عددا كبيرا من جنودها بين قتيل وجريح وأسير، وتوفي من المغاربة 787 محاربا من بينهم 57 ضابطا، وللصدفة فمن قلائل الضباط الذين نجوا من الحرب كان الجنرال محمد أوفقير... لم تكشف وثائق وزارة الدفاع الفرنسية عن العدد الحقيقي للأسرى، واكتفت بذكر عدد الأسرى الذين عادوا من الجيش الفرنسي بصفة عامة، واستمرت فرنسا في إنكار أي أنباء عن التحاق مغاربة بالجانب الآخر.

مغاربة «هوشي منه»

نهاية الحرب لم تكن تعني نهاية وجود المغاربة بـ «لاندوشين»، أسر عدد مهم من المغاربة في معسكرات اعتقال «الفيت منه» إلى جانب الفرنسيين، يتذكر العياشي أن «الفيتناميين كانوا إنسانيين في معاملتهم مع جنود المستعمرات عكس معاملتهم مع الجنود البيض، وقد جرحت وتكفل الفيتناميون بعلاجي وتسليمي للفرنسيين فيما بعد»، يقول المحارب الذي عاد إلى

المغرب وهو يتذكر أنه لم يخضع لأي خطاب دعائي أو تعبوي من طرف الشيوعيين الفيتنام الذين سلموه في الحال. وعلى الرغم من أن عددا من الجنود المغاربة عادوا إلى فرنسا ومن ثم إلى المغرب، فإن عددا كبيرا منهم قرر الالتحاق بمقاتلي الحزب الشيوعي الفيتنامي.

سنة 2002 ستصدر «نيلسيا ديلانوي»، المؤرخة المزدادة بالمغرب، كتابا شكل صدمة قوية للفرنسيين، الذين طالما نفوا فرضية التحاق المغاربة بـ«الفييت منه» بشكل تطوعي وإيمانا بصدق هذه القضية، كان كتاب «غبار الإمبراطورية»، يحمل شهادات ووقائع تؤكد التحاق عدد من الجنود المغاربة بالحزب الشيوعي الفيتنامي بدءا من سنة 1950 حتى نهاية الحرب سنة 1954. الفرنسيون لم يقرؤوا مجريات الأحداث جيدا، ظنوا أن ولاء المغاربة والجزائريين والتونسيين سيبقى كما كان عليه الحال خلال الحرب العالمية الثانية، فيما تفطن «هو شي منه» ورفاقه بالحزب الشيوعي إلى تنامي الحس الوطني بهذه البلدان، إذ لم يرغب المغاربة الذين التحقوا بالفيتناميين يوما أن يقاتلوا في الحرب ضدهم، الظروف وحدها هي التي أرغمتهم على ذلك.. قسوة سنوات الأربعينات وغياب أي بديل للفلاحة دفع بهم إلى الجيش الفرنسي. «تطوعت بالجيش الفرنسي سنة 1947 لأنه لم يكن لدي مكان بالبيت، كنت وقتها أبلغ 18 سنة، زوجة أبي كانت تعاملني بقسوة، سافرت إلى الدار البيضاء وتطوعت في الجيش، دفع لي الجيش الفرنسي مبلغ 4500 فرنك عند الالتحاق، وراتب 130 فرنكا كل 15 يوما بالإضافة إلى السجائر كل شهر»، يقول بوشعيب المحارب المغربي الذي التحق بالمقاومة الفيتنامية.

في كتاب «غبار الإمبراطورية» توضح الكاتبة أن الدافع الأول للتطوع، كان هو الحصول على عائد مالي وليس الدفاع عن فرنسا الحرة، كما كان يدعي أغلب القادة العسكريين الفرنسيين خلال حملة الهند الصينية. كان المغاربة يبحثون عن معنى للحرب التي يخوضونها. في البداية كانت الحملة عبارة عن حرب دموية في أدغال الفيتنام، ولم يعِ المغاربة ماذا يفعلون هنا أصلا، أغلبهم أمي، لكنهم جميعا يعلمون أن المغرب يصارع هو الآخر من أجل الاستقلال.

بداية الالتحاق بالجانب الآخر

«ديان بيان فو» وموت الإمبراطورية الفرنسية

إذا كانت حملة الهند الصينية قد عرفت خسائر فادحة للجيش الفرنسي منذ بدايتها، فإن الضربة القاضية أتت في ديان بيان فو، هذه المدينة الصغيرة التي أصبحت مسرحا لإحدى أكبر هزائم الجيش الفرنسي في التاريخ الحديث، عقب المواجهة التي دارت بين الجيش الفرنسي، بقيادة الكولونيل دو كاستري، ومقاتلي الحزب الشيوعي بقيادة الجنرال جياب، والتي خلفت هزيمة الجيش الفرنسي، ومعها إعلان استسلامه والقبول باستقلال جمهورية فيتنام الديمقراطية بالشمال. تعدت خسائر الجيش الفرنسي 3000 قتيل و12 ألف أسير. المغاربة توفي منهم أكثر من 400 جندي، أي أكثر من ضعف الجنود الذين قتلوا منذ بدء حملة الهند الصينية، والذين شاركوا منهم في معركة «ديان بيان فو» كان أغلبهم ممن شارك في معارك الحرب العالمية الثانية بايطاليا، وممن نجوا من المعارك الأولى بأدغال «لاندوشين»، غير أن «ديان بيان فو» كانت الجحيم الأكبر، فطيلة 170 يوما سيحاصَر المغاربة إلى جانب الفرنسيين حتى الاستسلام، لم تنته المعاناة بنهاية المعركة، فقد كان على المغاربة أن يمشوا إلى جانب الفرنسيين مئات الكيلومترات إلى معسكرات الاعتقال التي أقامها «الفييت منه» على الحدود الصينية، غير أن صفة جنود المستعمرات ستمنحهم معاملة أفضل من الفرنسيين «البيض».

صورة عائلية تجمع «كيم لاين» مع زوجها المغربي وأطفالهما مباشرة بعد عودتهما إلى المغرب.

خاص

خاص

↑ جندي مغربي في سلاح المدفعية الفرنسية، بأحد معسكرات «لاندوشين».

كانت نتيجة نداءات إذاعة القاهرة للجنود المغاربة، بترك الجيش الفرنسي والالتحاق بالمقاومة الفيتنامية التي تشاركهم الهم نفسه. النداءات التي كان وراءها زعيم يحضى بمكانة خاصة ومحترمة لدى الجميع، أسد الريف عبد الكريم الخطابي المنفي بالقاهرة، الذي استجاب بدون تردد لرفيقه في الكفاح «هوشي منه»، وطلب من المغاربة ترك السلاح الفرنسي، كما أن نداءات إذاعة القاهرة تزامنت مع حدث كان له وقع كبير في نفسية المغاربة، وهو نفي الملك محمد الخامس إلى مدغشقر الذي غير من نظرتهم كليا إلى دولة فرنسا. سنة 1953 سيصبح المغاربة من أكثر جنود المستعمرات الهاربين من الجيش يفوقون الجزائريين، والتونسيين، والسنغاليين، بيد أن الالتحاق بالمقاومة الفيتنامية لم يتم دوما عبر الوعي بالقضية الوطنية، فوسائل البروبغندا الفيتنامية كان لها دور مهم أيضا، النداءات التي كان تبثها قيادة «هوشي منه» أثرت في نفسية الجنود المغاربة المحاصرين، كانت تصفهم بالمرتزقة وأعوان الاستعمار، الشيء الذي كان يدمر نفسية المحاربين غير المقتنعين أصلا بجدوى هذه الحرب. تداول المغاربة أيضا اسم الجنرال «الحمري»، وهو مغربي كان مكلفا من طرف الفيتناميين بخطف الجنود المغاربة وقتل من لم يرد الالتحاق بالجانب الآخر، لكن يبدو أن هذا الجنرال كان اختراعا للآلة الدعائية الفيتنامية. عامل آخر ساهم في التحاق المغاربة بمقاتلي الحزب الشيوعي كان هو قدوم «معروف المغربي» أو امحمد بن عمر لحرش، أحد مؤسسي الحزب الشيوعي المغربي إلى جانب علي يعتة، بن عمر هذا كان محاربا في الجيش الفرنسي خلال الحرب العالمية الثانية، وقاتل بايطاليا ضمن وحدة القناصة المغاربة. في 1950 غادر بن عمر المغرب سرا إلى فرنسا، ومنها إلى روسيا قبل أن يلتحق بالصين عبر القطار، ليظهر أخيرا بالفيتنام. كان يعرف بن عمر باسم «معروف»، نسبة إلى زعيم نقابي جزائري شيوعي بفرنسا. الجنرال معروف كان منحازا إلى المغاربة ويعتبر نفسه مسؤولا على تدبير مشاكلهم، وقد منحته رتبته داخل «الفييت منه»، كمستشار عسكري، صلاحيات واسعة.

الالتحاق بالقائد «هوشي منه» كان نتيجة نداءات القاهرة للجنود المغاربة..وساهمت فيه البروبغندا الفيتنامية.

كانت مهمة بن عمر الأساسية هي تدبير الحرب السيكولوجية، واستقطاب أكبر عدد من المغاربة وجنود المستعمرات من شمال إفريقيا تحت اسم «جيش تحرير شمال إفريقيا»، الذي لم يستقطب في نهاية الأمر عددا كبيرا من المقاتلين، كما أن قيادة «الفييت منه» لم تسمح بوجود إطار مستقل داخلها. بحلول سنة 1954 تزايدت مخاوف الفرنسيين من تمرد المغاربة، وتشير وثيقة للاستخبارات العامة الفرنسية إلى ذلك بشكل واضح: «الفرنسيون لا يتحالفون مع الشيوعيين سوى بعض الاستثناءات، القوات الملغاشية والسنغالية هي الأخرى لا تسجل إلا حالات قليلة، أما بالنسبة إلى جنود شمال إفريقيا فالتأثير السياسي يبدو واضحا بشكل جلي. التمرد يبرز بشكل دوري. وحدات بأكملها التحقت بالعدو، خصوصا المغاربة الذين تصلهم المستجدات السياسية ببلدهم...». الوثيقة التي نشرها كتاب «غبار الإمبراطورية» يؤكدها حدث استثنائي أوردته جريدة «لو جورنال دو مارش» في فبراير سنة 1953، ويفيد بقيام مغربي برتبة ملازم ثان بإطلاق النار على ضباط فرنسيين، خلف قتل ستة منهم، مما أثر عميقا على قيادة الجيش الفرنسي التي سارعت إلى إخفاء الحدث عن الجنود المغاربة حتى نهاية الحرب سنة 1954 بهزيمة فرنسية مذلة. نهاية الحرب كانت تعني عودة الجنود الأوفياء لفرنسا وبقاء من اختار الجانب الآخر.

خاص

↑ القيادة العسكرية الفرنسية كانت تتباهى بوجود مقاتلين مغاربة في جيشها.

الحياة في حقول الأرز

من اختار العيش مع الفيتناميين كان عليه أن يصبح مزارعا ويعمل في ضيعات الدولة «الكولخوزات» من أجل العيش الطبيعي بفيتنام. اختار الرفاق زوجات فيتناميات للمغاربة، جميلة (كيم لان اسمها الفيتنامي) تتذكر كيف التقت زوجها أحمد الهاجي الذي قدمه إليها أحد أصدقاء أخيها. «كان أحمد يرغب في الزواج والاستقرار، ولم أمانع رغم أن المجتمع الفيتنامي يرفض الزواج من الغرباء». وعلى الرغم من أن الحكومة الفيتنامية ساعدت المغاربة على الاستقرار بفيتنام من خلال تقديم جميع أشكال المساعدة بمنح أراض للزراعة، وتعويضات شهرية، وخدمات التطبيب والتمدرس للأبناء، فإن المرأة الفيتنامية المتزوجة من أجنبي ظلت محل تحقير داخل المجتمع. هذه المعاملة لم تنطبق أبدا على المغاربة الذين استوطنوا الفيتنام، فجل الشهادات تفيد بأن الشعب الفيتنامي ظل يرحب بهم ويعتبرهم مكونا من مكونات المقاومة. شهادة ميلود، وهو واحد من الجنود القلائل المتعلمين، تشرح بشكل واضح التعايش ما بين المغاربة والفيتناميين: «تعلمت من الفيتناميين التعايش مع المعاناة، في القرى الصغيرة أبرز هذا الشعب قدرة رائعة على المقاومة وفي الوقت نفسه كرما لا حدود له مع المغاربة، وتأكيدا للمساواة ما بين المغربي والفيتنامي». المغاربة أيضا تقاسموا مع الفيتناميين مرارة الحرب التي عاشتها فيتنام خلال ستينات القرن الماضي، وعايشوا ذروة القصف الأمريكي اليومي، واضطروا إلى مغادرة هانوي التي شكلت التجمع الأولي للمغاربة والجزائريين والتونسيين تحت وطأة هذا القصف، ولجؤوا إلى جبال «سون تاي» البعيدة نسبيا عن مناطق الحرب، هناك سيعيش المغاربة في تجمعات زراعية، حسب النهج الشيوعي، حيث تخصص لكل أسرة مساحة لزرع الأرز وبقرة. اندماج المغاربة في مجتمع بوذي كان يطلق عليهم لقب «سود أوربا»، وأكثر من ذلك باعتبارهم جنودا دون رتبة وبدون مدخول مالي، لم يكن ليتحقق لولا إرادة «هوشي منه» بأن يتم هذا التلاقح «الثوري» على حساب الدولة. لم يجبر أي من المغاربة على خوض الحرب ضد الولايات المتحدة الأمريكية، وظلوا بعيدين عنها قدر المستطاع. جميلة تتذكر تلك الحرب اللعينة، كما تقول: «كانت حربا قاسية، نزحنا في أول الأمر من هانوي إلى مناطق قريبة قبل أن نلجأ إلى الجبال، توفي على ما أذكر 4 مغاربة جراء القصف الأمريكي تاركين أرامل فيتناميات». على الرغم من عدم وجود أي مشاكل خلال مقام المغاربة بفيتنام إلا أن الحنين إلى البلد الأم ظل يراودهم.

مع هذه الرغبة في العودة ستبدأ المشاكل، بدءا من عودة الجزائريين، التونسيين، الإسبان والألمان الذين بقوا إلى جانب المغاربة بعد الحرب إلى بلدانهم الأصلية سنوات فقط بعد نهاية الحرب، فيما نداءات المغاربة بالعودة إلى المغرب كانت تقمع بشكل صارم، كما هو الشأن بالنسبة إلى عبد النبي، عبد القادر، وبن دريس الذين يئسوا من انتظار الاستجابة لمطالبهم بالعودة، فقرروا بعد وفاة محمد الخامس الهرب بطريقة سرية إلى هانوي لأخذ

امحمد بن عمر لحرش جنرال مغربي بفيتنام

قصة امحمد بن عمر لحرش تختلف عن قصص الجنود المغاربة الذين التحقوا بمقاتلي الفييت منه، ف امحمد، النقابي المعروف بالمغرب، استجاب لنداء «هوشي منه» للحزب الشيوعي المغربي من أجل إرسال وسيط بين قوات الفييت منه والأسرى المغاربة.. وسيط يكتب المنشورات بالعربية والفرنسية ويجيد فن الخطابة، كل هذا توفر في الجنرال بن عمر أو الجنرال «أنه ما»، التي تعني الأخ الفرس بالفيتنامية، وهو الاسم الذي كان يطلقه عليه «هوشي منه». خلق قرى للمغاربة بعيدة عن الظروف القاسية لمعسكرات الاعتقال، وحاول إفهام الجنود بأن القتال من أجل الحرية يمر عبر القتال مع الشيوعيين. نجح بن عمر في خلق مناخ شمال إفريقي داخل المعتقلات، غير أن نشره للنهج الشيوعي لم يلق صدى واسعا لدى الجنود المغاربة. عند نهاية الحرب غادر بن عمر إلى بلغاريا قبل العودة إلى المغرب، حيث عين كاتبا عاما لنقابة المكتب الشريف للفوسفاط بخريبكة، قبل أن يترك عمله بعد نزاعات تتعلق بالديون ويمضي فترة بالسجن. بعد خروجه سيختفي عن الأنظار قبل أن يعرف أنه التحق بالمعارضين المغاربة بالجزائر، ويعرف هناك باسم أبو بكر. مسار ابن عمر خلده الكاتب والوزير السابق، عبد الله ساعف، في كتاب «حكاية أنه ما».

وحيد التيجاني

جميلة أو «كيم لاين» الفيتنامية لا تفوت فرصة لتبدي ولاءها للمغرب.

القطار والفرار نحو الحدود، قبل أن يلقي عليهم الجنود الفيتناميون القبض، وسيزج بهم في السجن لمدة تراوحت ما بين السنتين والأربع سنوات في معتقلات للأشغال الشاقة. تروي صورية، إحدى بنات بن دريس، أن «عددا من الكهنة البوذيين ساعدوا أباها ورفاقه أكثر من مرة عبر تهريب الأغذية إلى المعتقلات التي كانت تعرف نقصا حادا في التموين»، تتذكر صورية أيضا كيف أن والدتها كانت تقطع كيلومترات عديدة من أجل رؤية زوجها بملامحه الغائرة وجسده النحيف عند خروجه من السجن. هذه الحادثة خلفت أثرا نفسيا عميقا لدى المغاربة الذين جاهدوا لإيصال صوتهم إلى المسؤولين في المغرب من أجل العودة، لكن دون جدوى. السلطات المغربية لم تحاول يوما أن تسأل عن المغاربة بالفيتنام، على الرغم من علمها بوجود جالية هناك منذ فجر الاستقلال، إذ سبق أن راسل «هوشي منه» الملك الراحل محمد الخامس يخبره برغبة الجنود المغاربة في العودة إلى وطنهم. كان الأمر معقدا في ظل مناخ الحرب الباردة حيث كانت التحالفات سيدة الموقف، إذ كان المغرب يخشى في عز انتشار الشيوعية بالعالم من اختراق هذا الفكر لأراضيه، وكان ينظر دوما إلى مغاربة الفيتنام على أنهم شيوعيين. سينتظر المغاربة حتى سنة 1972 ليتمكنوا من العودة إلى الوطن، حيث عجلت الوساطة التي حملها القنصل المغربي ببكين إلى الملك الراحل الحسن الثاني بعودة المغاربة إلى بلاد تركوها وهم شبان يافعون، ليعودو إليها بأسر أسيوية.

من هانوي إلى سيدي يحيي

أقلت طائرة خاصة ثمانين أسرة مغربية من فيتنام إلى القاعدة العسكرية بالقنيطرة سنة 1972، وكما كان رحيلهم دراميا كانت عودتهم درامية أيضا، إذ تزامنت مع انقلاب قاده ضابط سابق بلاندوشين: محمد أوفقير. العودة إلى المغرب كانت تعني ميلادا جديدا للجنود المغاربة، حيث سيلتقون بعائلاتهم، وستساعدهم حكومة بلدهم الأم على الاستقرار مجددا بعد أن تخلوا عن ممتلكاتهم في لاندوشين من أجل العودة. لم تسر العودة وفق ما تمنى مغاربة الفيتنام، فمعظمهم كان مسجلا كمتوفى في السجلات المدنية المغربية، ومعظمهم حرم من الإرث ومن أبسط الحقوق، وتطلب «إحياؤهم» رفع قضايا بالمحكمة لم يكن لديهم المال الكافي في أغلب الأحيان من أجل متابعتها، وأغلبهم خاب أمله في المغرب الذي لم يكن يختلف كثيرا عن الفيتنام سوى في عدم وجود القاذفات الأمريكية بسيدي يحيى، المنطقة التي منحهم فيها الحسن الثاني أراضي فلاحية من أجل الاستقرار، إلى جانب تعويضات شهرية بعد أن توقفت فرنسا عن دفع رواتبهم منذ التحاقهم بالشيوعيين. جميلة، التي استقبلتنا ببيتها في دوار «الشينوا»، على بعد 8 كلم من سيدي يحيي، تتذكر كم كانت الأيام الأولى صعبة بالمغرب: «لم أغادر البيت، ولم أعرف ماذا أفعل ومع من أتحدث، وحدهن جاراتي الفيتناميات وأبنائي من كنت أتواصل معهم». فاطمة جارة جميلة تتذكر النظرات المريبة للمغاربة وعنصريتهم اتجاه هؤلاء الغرباء، «المغاربة لم يريدوا أن نكون هنا، تعرض أولادنا للمضايقات منذ اليوم الأول، ولم يستطع الجيران المغاربة استيعاب فكرة أننا أيضا مغاربة»، تقول فاطمة وهي تسترجع شريط ذكريات يعود إلى أربعين سنة خلت، وتقاطعها جميلة التي تذكرت للتو كيف كان اليوم الدراسي الأول لأحد أبنائها: «ذهب نور الدين إلى المدرسة، وكان وجهه آسيويا، كما كان لا يتكلم الدارجة، غير أنه كان يفهم بعض الكلمات مثل الحمار، وما إن ناداه المعلم بها حتى لكمه وقفز فوق سور المدرسة، ولم يعد إليها أبدا»، تبتسم جميلة، فتلك الحادثة تعود إلى زمن بعيد، غير أنه في ذلك الوقت شكل الأولاد هاجسا لمعظم العائلات التي عادت إلى المغرب، فأغلب هذه العائلات تلقى أولادها تعليما فيتناميا، ولم تكلف الحكومة المغربية نفسها عناء البحث عن حل لهذا المشكل، رغم أن عدد أبناء هذه الأسر كان يتجاوز المائة، وحدهم الأطفال الذين سيرون النور بالمغرب لم يعانوا هذا المشكل. اصطدمت العائلات العائدة بمشكل آخر وهو تقنين زيجاتها، فقد طلبت الحكومة آنذاك بعقد عقود زواج شرعية وإسلامية، وبالإضافة إلى غياب

المغرب لم يحاول يوما أن يسأل عن المغاربة بالفيتنام، على الرغم من علمه بوجود جالية هناك منذ الاستقلال.. لكن الحرب الباردة حالت دون ذلك.

الوثائق كان لزاما على الزوجات الفيتناميات دخول الإسلام، وهو ما لم يتقبله بعضهن، حسب فاطمة: «بعض الفيتناميات تمسكن بالبوذية، ولم يرغمهن أحد على الدخول إلى الإسلام، ومن اعتنق الإسلام غيرن أسماءهن إلى أسماء محلية». مع مرور الزمن سيألف المغاربة وجود الفيتناميين هنا في سيدي يحيى، إلى أن أصبح يطلق على منطقتهم «دوار الشينوا». كان على «الشينوا» إذن أن يبدؤوا من جديد، وأن يبنوا مساكن جديدة، ويبحثوا عن عائدات مادية تضمن العيش الكريم. كانت التعويضات هزيلة جدا «على الرغم من أن الملك، الله يرحمو، كان سخيا في توزيع الأراضي في هذه المنطقة الفلاحية الخصبة، لكن أن تبني مسكنا وتعيل أسرة كبيرة ليس بالأمر السهل»، تقول جميلة التي شاركت زوجها، المتوفى منذ أربع سنوات، حلو الأيام ومرّها من الفيتنام إلى المغرب، شأنها شأن باقي الأمهات والزوجات اللواتي عدن إلى المغرب.

خاص

↑ كانت شجاعة الجنود المغاربة رهانا قويا لدى الجيش الفرنسي.

الفيتناميون اليوم

اليوم «دوار الشينوا» هو عبارة عن ضيعات صغيرة مترامية هجرها الأولاد، ومات معظم الأزواج منذ سنوات أو هاجروا مع أولادهم إلى فرنسا، وحده رجل واحد من المغاربة الذين حاربوا في الفيتنام من يستقر بالدوار «بن حادا الشينوي» كما يعرف بمدينة سيدي يحيي، يقضي وقته بين الرباط ومزرعته بالدوار، ولم يرد الحديث عن جراح الماضي ولا عن واقعه اليوم، أما أغلب النساء فهن من يقمن برعاية الضيعات بالاستعانة بعدد من «الخدامة» المغاربة. أولاد هذه الأسر أغلبهم هاجر إلى دول أخرى، أو اختار التجارة والتخصص في الطبخ الآسيوي بالمغرب بكبريات المدن المغربية. قصص نجاحهم تتعدد، وهم مثال للتحدي والاجتهاد، يقول أحد سكان الدوار: «أغلب أولاد الشينوا نجحوا في أن يتغلبوا على عائق اللغة، واستغلوا معرفتهم بالطبخ الآسيوي، وافتتحوا مطاعم ناجحة بالدار البيضاء والرباط». أبناء جميلة أغلبهم هاجر إلى فرنسا، وأغلبهم أصبح أبا أو أما، «أنا الآن أعيش لوحدي. أولادي السبعة متفرقون بالمغرب أو فرنسا، المهم هو أنهم عرفوا طريق النجاح على الرغم من صعوبة الأمر». جميلة، التي تعيش بفضل عائدات الأرض وتعويض هزيل من الدولة يبلغ 225 درهما في الشهر، لا تتذمر كثيرا، ولا يقلقها إلا شيء واحد، وهو ملكية الأراضي التي لم تمنحها الدولة لهم. «لا أدري ماذا سيكون مصير الأرض أو البيوت عندما نموت، أبلغ من العمر ثمانين سنة، وقد استثمرت كثيرا في هذه الأرض. لم يساعدنا أحد، حتى فيضانات الغرب كل شتاء عانيناها لوحدنا دون مساعدة من أحد، وكل ما نريده هو التسوية القانونية لهذه الأراضي حتى نضمن الحق المشروع لأولادنا». بعد أربعين سنة بالمغرب أكدت لنا جميلة وجاراتها أنه لا فرق بين المغرب وفيتنام سوى في جودة الأرز -يقلن مازحات- تناسين كل صعاب الماضي، فقد تعلمن خلال مقامهن هنا أن الخير والشر يوجد في كل بلد. أولادهم وإن قسموا إلى نصفين فهم يحملون حبا متساويا للمغرب وفيتنام، ومزيجا ثقافيا تحضر فيه فرنسا التي جمعت الشرق الأقصى بالمغرب الأقصى. •

فرنسي في خدمة «الفييت منه»

جورج بوداريل،
شيوعي فرنسي

مهمة الدعايات والبروباغندا لم تقتصر على عدد من قيادات جنود المستعمرات أو الجنرال المغربي بن عمر. جورج بوداريل حالة استثنائية، هذا الفرنسي المناضل في الحزب الشيوعي الفرنسي التحق بالجيش الفرنسي إبان الحملة الفرنسية بالهند الصينية سنة 1948 قبل أن يترك صفوف هذا الجيش سنة 1950 ليلتحق بصفوف مقاتلي الفييت منه. جورج سيحاكم غيابيا بالإعدام بتهمة الخيانة العظمى أثناء الحرب، لكنه سينجح في الوصول الى منطقة تونكين حيث سيعين مستشارا سياسيا للفييت منه وسيشرف على معتقلات الأسرى. خلال هذه الفترة سينجح بوداريل في تعبئة عدد من جنود المستعمرات من مغاربة، جزائريين، اسبان وألمان، كما كان صديق للجنرال بن عمر ولعب دورا مهما في مساعدته على الاندماج مع قيادات الفييت منه. وجهت تهم عديدة لبوداريل من طرف عدد من قدماء المحاربين بالجيش الفرنسي بعد مسؤوليته عن وفاة عدد من الجنود بمخيمات الاعتقال التي كان يشرف عليها، غير أن بوداريل الذي استفاد من قانون العفو الصادر سنة 1966 استطاع أن يفلت من هذه التهم وأن يشتغل حتى وفاته سنة 2003 كأستاذ محاضر بجامعة باريس السابعة وكباحث بالمركز الوطني للبحث العلمي.